

زهير سوکاح | *Zouheir Soukah

مراجعة كتاب الذاكرة الجمعية لـ موريس هاليفاكس

Book review *On Collective Memory* by Maurice Halbwachs

الذاكرة الجمعية.	عنوان الكتاب:
موريس هاليفاكس.	المؤلف:
نسرین الزهر.	ترجمة:
بيت المواطن للنشر والتوزيع.	الناشر:
دمشق/ بيروت.	مكان النشر:
2016.	تاريخ النشر:
181 صفحة.	عدد الصفحات:

* باحث مغربي، حاصل على الدكتوراه في اللغة الألمانية وآدابها من جامعة هاينرش هاينه بدوسلدورف، ويحاضر في الجامعة نفسها.

A Moroccan Researcher, he Holds a PhD in German Language and Literature from the University of Düsseldorf, and he Lectures at the same University.

بت
يعتبر عالم الاجتماع الفرنسي موريس هالبنفاكس Maurice Halbwachs (1877-1945) المؤسس الفعلي لعلم اجتماع الذاكرة، وذلك بفضل أعماله السوسولوجية التي ظهرت قبل نحو قرن من الزمن، والتي اهتم فيها، على غير عادة مجايله، بموضوع الذاكرة التي كان يُنظر إليها، إلى حدود عشرينيات القرن الماضي، باعتبارها عملية داخلية ترتبط بالفرد المتذكر وتنحصر فيه، كما هو الحال عند أستاذه إميل دوركايم Émile Durkheim (1858-1917)، إضافة إلى سيغموند فرويد Sigmund Freud (1856-1939)؛ فبخلافهم، شدّد هالبنفاكس في عمله الأول، الأطر الاجتماعية للذاكرة *Les Cadres sociaux de la mémoire* (1925)، على أن الذاكرة هي أيضاً ظاهرة مجتمعية وليست مجرد إرث بيولوجي كما كانت تعتقد الأوساط العلمية آنذاك. لذا، لم يكن مستغرباً أن يتعرض هذا التصور المُستجد لانتقادات عدة من رموز السوسولوجيا الفرنسية، حيث نُظِر إليه باعتباره تعاملاً فضفاضاً مع ظاهرة نفسية داخلية، لا تُعد من قضايا البحث السوسولوجي، وهذا ما دفع هالبنفاكس طوال السنوات التي تلت صدور هذا الكتاب الأولي إلى الاشتغال بعمق أكبر بنظريته حول البعد الاجتماعي للذاكرة في عمل جديد (وهو موضوع هذه المراجعة)، قبل أن يعتقل جهاز الغستابو الألماني هذا السوسولوجي من أصول ألمانية يهودية سنة 1944، في باريس. وقد صدر هذا العمل غير المكتمل بعد خمس سنوات من وفاة هالبنفاكس في معتقل بوخنفالد النازي، بعنوان *الذاكرة الجمعية* (1950) *La mémoire collective*، غير أنه لم يجذب إليه الاهتمام المأمول من جانب السوسولوجيا الفرنسية، إلى أن أُعيد اكتشافه خارج ميدان علم الاجتماع (مع

وبالرجوع إلى محتويات الترجمة العربية، نجد أنها تشتمل على خمسة فصول، في حين يشتمل النص الفرنسي الأصلي على أربعة فصول تضم أبواباً متنوعة؛ ومردّ هذا الأمر اشتغال النسخة العربية على مقال مُعرّب نشره هالبنفاكس بعنوان «الذاكرة الجمعية عند الموسيقين» *«La mémoire collective chez les musiciens»* (1939) في إحدى الدوريات الفرنسية، وهذا المقال لا ينتمي إلى مكونات الكتاب الأصلي في طبعته الأولى⁽³⁾.

(1) بشأن صدور الترجمة العربية للنسخة الفرنسية بالنسبة إلى هذا الكتاب، ينظر: جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة، تعريب جمال شحيد، سلسلة ترجمان (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).

(2) نجد التأثير الهالبنفاكسي نفسه عند الفيلسوف الفرنسي بول ريكور، والمؤرخ الألماني يان أسمان. للمزيد، ينظر: زهير سوكاح، «حقل دراسات الذاكرة» في العلوم الإنسانية والاجتماعية: حضور غربي وقصور عربي، أسطور، العدد 11 (كانون الثاني/ يناير 2020)، ص 33-58.

(3) Maurice Halbwachs, «La mémoire collective chez les musiciens», *Revue Philosophique*, vol. 127, no. 3-4 (Mars-Avril 1939), pp. 136-165.

يعتبر عالم الاجتماع الفرنسي موريس هالبنفاكس Maurice Halbwachs (1877-1945) المؤسس الفعلي لعلم اجتماع الذاكرة، وذلك بفضل أعماله السوسولوجية التي ظهرت قبل نحو قرن من الزمن، والتي اهتم فيها، على غير عادة مجايله، بموضوع الذاكرة التي كان يُنظر إليها، إلى حدود عشرينيات القرن الماضي، باعتبارها عملية داخلية ترتبط بالفرد المتذكر وتنحصر فيه، كما هو الحال عند أستاذه إميل دوركايم Émile Durkheim (1858-1917)، إضافة إلى سيغموند فرويد Sigmund Freud (1856-1939)؛ فبخلافهم، شدّد هالبنفاكس في عمله الأول، الأطر الاجتماعية للذاكرة *Les Cadres sociaux de la mémoire* (1925)، على أن الذاكرة هي أيضاً ظاهرة مجتمعية وليست مجرد إرث بيولوجي كما كانت تعتقد الأوساط العلمية آنذاك. لذا، لم يكن مستغرباً أن يتعرض هذا التصور المُستجد لانتقادات عدة من رموز السوسولوجيا الفرنسية، حيث نُظِر إليه باعتباره تعاملاً فضفاضاً مع ظاهرة نفسية داخلية، لا تُعد من قضايا البحث السوسولوجي، وهذا ما دفع هالبنفاكس طوال السنوات التي تلت صدور هذا الكتاب الأولي إلى الاشتغال بعمق أكبر بنظريته حول البعد الاجتماعي للذاكرة في عمل جديد (وهو موضوع هذه المراجعة)، قبل أن يعتقل جهاز الغستابو الألماني هذا السوسولوجي من أصول ألمانية يهودية سنة 1944، في باريس. وقد صدر هذا العمل غير المكتمل بعد خمس سنوات من وفاة هالبنفاكس في معتقل بوخنفالد النازي، بعنوان *الذاكرة الجمعية* (1950) *La mémoire collective*، غير أنه لم يجذب إليه الاهتمام المأمول من جانب السوسولوجيا الفرنسية، إلى أن أُعيد اكتشافه خارج ميدان علم الاجتماع (مع

والتذكر الجمعي، معتبراً أن النمط الأول أعسر وأعقد من النمط الثاني، لكنه هو الأيسر في استعادة أحداث وقعت ضمن الحيز العام، أي المشترك، أما النمط الأول فهو خاص وشخصي. ويفسر هذه المفارقة بقوله إن «الذكريات الأصعب في استحضارها هي تلك التي لا تخص سوانا، تلك التي تشكل ملكيتنا الأشد حصرية» (ص 67)، ذلك أنّ هالبفاكس لا يرى أي تعارض بينهما، معتبراً أن «كل ذاكرة فردية هي وجهة نظر تطل على الذاكرة الجمعية» (ص 69). وهذا، تحديداً، ما يُسهب في شرحه في مستهل الفصل الثالث المعنون بـ «الذاكرة الجمعية والذاكرة التاريخية»، مشيراً إلى أن الذاكرة الفردية «ليست مغلقة ومعزولة [...] فلكي يستذكر المرء ماضيه الخاص هو في حاجة إلى ذكريات الآخرين» (ص 73). وعلى هذا الأساس، يرى أنهما في علاقة تكاملية، رغم إقراره في الوقت نفسه بأننا «لسنا معتادين بعد على التحدث عن ذاكرة جماعة»، حتى لو كان ذلك «من باب المجاز» (ص 73)، مضيفاً أن استناد ذاكرة الفرد إلى ذاكرة الجمع إنما هو لسدّ ثغرات الذاكرة الفردية، بل توطيدها أيضاً - من دون أن يقلل هذا الأمر من استقلاليتها ودورها في تشكيل الذاكرة الجمعية التي تتطور وفق قوانينها الذاتية - وأنها، في نهاية المطاف، مؤلفة من ذكرات فردية متعددة ومتنوعة تسهم في تأسيس الوعي الجمعي للجماعة التذكيرية، حالما تتموضع بصورة لافردية، أي جمعية. وفي هذا الصدد، يقول هالبفاكس: «تأتي الذكريات الجمعية لتُضاف إلى الذكريات الفردية ولتعطينا على هذه الأخيرة ممسكاً مناسباً وأكيداً أكثر، ولكن ينبغي للذكريات الفردية أن تكون مسبقاً موجودة، وإلا فإن ذاكرتنا ستعمل في الخواء» (ص 81).

يتخذ هالبفاكس، في الفصل الأول، من الذاكرة الموسيقية، أو على وجه الدقة ذاكرة الموسيقيين، مثلاً ملموساً لتوضيح تصوره للذاكرة الجمعية، بعد النقد الشديد الذي وُجّه إليه، بوصفها ذاكرة مخصوصة بجماعة بعينها تعبر عنها بدقة. وفي هذا الإطار، يرى أن الذاكرة الموسيقية عند جماعة الموسيقيين أوسع وأكثر دقةً من الذاكرة التي عند غيرهم (ص 16)، مضيفاً أن الرموز الموسيقية «المصطنعة» هي أكثر من مجرد عمل دماغي، بل إنها «عُرف أو اصطلاح» منغلَق أنتج في عالم الجماعة الموسيقية، التي هي وحدها ما يمكنك التعامل معه في وسط اجتماعي متكامل من الموسيقيين (ص 19). وهنا، ينتقد وجهة النظر الفيزيولوجية المحضة التي تكتفي بالتسليم بأن الدماغ البشري وحده يكفي للقيام بعملية استدعاء الذكريات وتمييزها (ص 20). ينتمي هذا المقال، إذًا، إلى مشروع أكبر لهالبفاكس، وهو كتابه غير المكتمل الذاكرة الجمعية الذي يستهله، من دون مقدمة، بفصل قصير حول الذاكرة الفردية والذاكرة الجمعية.

يؤكد هالبفاكس أن ذكرياتنا تبقى، رغم فردانيتها الظاهرية، ذات طبيعة مشتركة؛ ومن ثمّ فهي جمعية، وذلك حينما يُدكرنا بها المجتمع المحيط بنا «مع أنها أحداث عُنيّا بها وحدنا»، مضيفاً «أننا لسنا في الحقيقة وحيدين البتة» (ص 48). ومن هذا المنطلق، يرى أن النسيان لا يمكن فهمه ببساطة بوصفه عملية فيزيولوجية؛ فهو مرتبط بتلك الأطر الاجتماعية نفسها المؤثرة في عملية التذكر الفردية: «أن ننسى فترة من حياتنا، هو أن نفقد الصلة بأولئك الذين كانوا يحيطون بنا في تلك الفترة» (ص 52). وعلى هذا الأساس، يُقيم هالبفاكس في الفصل الثاني تمييزاً أولياً بين نمطين من أنماط التذكر؛ هما التذكر الفردي

وعلاوةً على ذلك، يرى هالفاكس، في إطار شرح فكرته حول التعارض بين الكتابة التاريخية والذاكرة، على الأقل من الناحية الوظيفية، أن الذاكرة الجمعية تتميز من التاريخ بخاصيتين أساسيتين؛ هما الاستمرارية والتنوع. فهي بحسب تعبيره «تبار أفكار مستمر [...] استمرارية لا شيء مصطنعاً فيها»، إنها لا تحتفظ من الماضي إلا بما هو «حي أو قادر على البقاء حياً عند الجماعة التي تحمله» (ص 99)، أما التاريخ فهو في نظره «مُتموضع خارج الجماعات وأعلى منها»، ذلك أنه «يهتم قبل كل شيء بالفوارق والتضاد» (ص 100).

وفي مقابل التنوع الذي تتميز به الذاكرة أو الذكرات، يرى هالفاكس أن «التاريخ واحد»، وأنه ما من شيء فيه ثانوي؛ لذا «ينجح التاريخ في إعطائنا نظرة سريعة عن الماضي، فهو يجمع في برهة قصيرة ويرمز بحركة سريعة، تاريخ شعوب وأفراد وتطورات جمعية حدثت ببطء»، مضيفاً أن التاريخ يقدم لنا بهذه الطريقة «صورة وحيدة وجامعة» (ص 104). وبخلاف هذا، فإن الجماعة حينما تتمثل ماضيها، فإن ذاكرتها، وليس تاريخها، هي ما يحتل الصدارة، فهي تشعر، بحسب تعبيره، بأنها بقيت كما هي مدركة هويتها المخصوصة بها عبر عامل الزمن (ص 104). وبهذا العامل الزمني وعلاقته بالذاكرة الجمعية، يهتم هالفاكس في الفصل الرابع من الكتاب، عاداً إياه - إلى جانب المكان والجماعة نفسها - شرطاً مركزياً في تشكل الذاكرة في بعديها الفردي والجمعي.

في هذا الفصل يناقش هالفاكس تصورات دوركايم المتعلقة بالتمثل البشري للزمن، بوصفه ضرورة من ضرورات المجتمع، وبمفهوم الزمن لدى هنري برغسون Henri Bergson (1859-1941) الذي يرى أن الذاكرة ملكة فردية مرتبطة

وبخلاف العلاقة التكاملية بين هذين النمطين من التذكر، نجد أن هالفاكس يُقيم تعارضاً واضحاً بين الذاكرة والتاريخ، بل إنه يُسهب في الفصل الثالث المطول في مناقشة العلاقة الشائكة بينهما. كما نجده في ثنايا هذا الفصل المهم يؤكد أنه من غير الممكن الخلط بين التاريخ والذاكرة، مُشدداً على أن «تعبير 'الذاكرة التاريخية' لم يُحسن اختياره، لأنه يصل عبارتين تعارضان في أكثر من نقطة» (ص 98)، وهذه فكرة ذات أهمية كبيرة؛ بالنظر إلى الاستعمال غير الدقيق، بل المرتبك أيضاً، في العديد من الأدبيات الغربية التي أخذت عنها النصوص العربية ما يُعرف بـ «الذاكرة التاريخية». ويُعلل رفضه هذا المصطلح بقوله: «لو كان نسيج الذاكرة الجمعية مجرد سلسلة من التواريخ وقوائم من الوقائع التاريخية، فإنها لم تكن لتلعب إلا دوراً ثانوياً في تثبيت ذكرياتنا الفردية» (ص 77).

من هذا المنطلق، يُفرق هالفاكس بين التاريخ المكتوب، الذي ليس إلا توثيقاً لجانب من الماضي وليس الماضي كله، والتاريخ المعيش، أي التاريخ الحيّ المتجدد عبر الزمن، وهو التاريخ الذي - بناءً عليه - تستند الذاكرة لاحقاً؛ فبحسب تعبيره، لديه «كل ما يلزم لتشكيل إطار حي وطبيعي يُستند عليه لحفظ صورة الماضي واستعادتها». وهذا تحديداً ما يُميز التاريخ المعيش من التاريخ المكتوب الذي يُرى في «المعرفة المجردة المعنية وليس الذاكرة» (ص 90). لهذا، يؤكد هالفاكس في نهاية هذا الفصل ما يسميه بـ «التضاد النهائي» بين التاريخ والذاكرة الجمعية، حينما يرى أن التاريخ لا يبتدئ إلا في اللحظة التي تنطفئ فيها الذاكرة الاجتماعية، مضيفاً قوله: «عندما تتبعر [...] الذاكرة في أذهان بعض الأفراد التائهين في المجتمعات الجديدة [...] تصحح الوسيلة الوحيدة لإنقاذ تلك الذكريات هي تثبيتها كتابة كسردي» (ص 98).

استمرارية الفضاء المكاني الذي تتموضع فيه، أو على الأقل إلى «استمرارية الجماعة في سلوكها» تجاه مكانها أو أمكنتها (ص 167). وهنا، يمكننا أن نفهم مدى التأثير الواضح لتصوراته، حول البعد المكاني للذاكرة الجمعية، في المؤرخ الفرنسي بيير نورا، وذلك من جهة تطويره نظريته الشهيرة عن أماكن الذاكرة التي ليست إلا امتداداً مُتطوراً لنظرية هالبفاكس السوسولوجية ضمن العلوم التاريخية المعاصرة.

نجح هالبفاكس في هذا العمل، إلى حد بعيد، في إثارة الانتباه العلمي إلى مسألة تموقع التذكر بين الفرد والجمع، وهو اهتمام سوسولوجي غير مألوف استطاع من خلاله تأكيد أنه لا ذاكرة ولا تذكر من دون جماعة أو بمعزل عنها، كما أظهر في الوقت نفسه أنه لا جماعة واعية من دون ذاكرة جمعية، وهي نتائج توصل إليها عبر استناده إلى مقاربات متعددة من معارف متنوعة؛ مثل السوسولوجيا، والفلسفة، وعلم النفس، والتاريخ، والأنثروبولوجيا، في هذا المؤلف الذي جاء على شاكلة النص الفلسفي المفتوح، بعيداً عن الأسلوب العلمي الجاف والمنغلق. ولا غرابة، إذ، في أن يترجم هذا العمل البيتنخصصي بعد إعادة اكتشافه إلى لغات عدة، وتُشكل ترجمته العربية أولى لبنات التعرف العربي إلى فكر ذلك السوسولوجي الفرنسي الذي عبرت نظريته جُلَّ تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية، بل إنّ أعماله - حول «الفردية» و«الجمعية» في الذاكرة - أسهمت في انبعاث حقل وليد متعدد التخصصات، هو حقل «دراسات الذاكرة» الحديث Memory Studies، الذي صارت فيه أعمال هالبفاكس الذاكراتية من المراجع التأسيسية له.

بالزمن الفردي؛ إذ ينتقد هالبفاكس حصر زمنية الإنسان في فردانيته، مُشدداً على ما أسماه «الزمن الجمعي» الذي يعتبره أيضاً متعارضاً مع الزمن الفردي، ويرى أنه لا يهتم الجماعة الذاكرية من الزمن هنا إلا «ضرورة سماحه لها أن تحتفظ بالحوادث التي وقعت فيه وتذكرها»، مؤكداً أن ديمومة الزمن شرطاً من شروط كل وعي جمعي قادر على التذكر، وذلك من خلال قوله: «كل مجتمع [...] يُجمّد الزمن على طريقتة الخاصة، أو يفرض على أفرادها وهماً مفاده أن بعض المناطق، خلال مدة معينة على الأقل، وفي عالم يتغير دون توقف، حازت شيئاً من الاستقرار والهدوء النسبي خلال فترة معتبرة» (ص 150). وكما أن لكل جماعة تمثلاً للزمن خاصاً بها تحتكره لنفسها، ولو تخيلياً، فإن لكل جماعة محددة أيضاً مكانها الخاص، وهذا ما يُسهب في شرحه في الفصل الأخير من الكتاب الذي يخصصه للعلاقة الرابطة بين الذاكرة الجمعية والمكان.

في الفصل الخامس والأخير، يرى هالبفاكس أن الجماعة تنغلق في الإطار المكاني الذي بنته لنفسها، وذلك لتحديد صورتها عن نفسها، وفي هذا السياق يُفسر الدور الذي تؤديه الصور المكانية أثناء تشكل الذاكرة الجمعية، فالمكان بالنسبة إليه «اندمج في بصمة الجماعة وكذلك الجماعة اندمجت ببصمة المكان»، مضيفاً أن الجماعة مرتبطة ارتباطاً طبيعياً بمكانها الخاص بها؛ فلا ذاكرة جمعية «خارج إطار مكاني» (ص 165). لهذا، يرى - ولو على نحو غير دقيق - أن الذكريات التي تهم الجماعات الأخرى لا يمكنها أن تلج في فضاء آخر مسكون بذاكرات أخرى؛ إذ يقول: «هذا الفضاء يُبنى على أساس استبعاد الفضاءات الأخرى» (ص 165)، ليختتم الفصل بتشديده على أن الذاكرة ذاتها تستند إلى

References

المراجع

العربية

سوكاح، زهير. «حقل 'دراسات الذاكرة' في العلوم الإنسانية والاجتماعية: حضور غربي وقصور عربي». أسطور، العدد 11 (كانون الثاني / يناير 2020).

لوغوف، جاك. التاريخ والذاكرة. تعريب جمال شحيّد. سلسلة ترجمان. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.

الأجنبية

Halbwachs, Maurice. «La mémoire collective chez les musiciens.» *Revue Philosophie*, vol. 127, no. 3-4 (Mars–Avril 1939).